تساؤلات في المبنى العقيديّ والمنهج

عند الدكتور حسن حنفي

سمير خير الدين

الوحدة

مـع الدكتور حسن حنفـي وكتاباته، نحن أمام مشروع، رؤيـويّ، منهجيّ، ذي مادة غنيّة، وغزيرة، تسعى لبناء نسق كلاميّ، عقائديّ، ثوريّ، جديد؛ وذلك على أرض علم الـكلام القديم؛ بغيـة جعل الإيمان ذا فاعليّة عند «الجماهـير»، لتكون العقيدة آنذاك ثورةً وحركةً وعملاً.

هـي تجربة جديرة بالبحث والنظر لمفكّر كبير، وكأنّي بنصّه في كتابه «من العقيدة إلى الثورة» أقـرب للتأمّل الفلسفيّ في الكلام منه لصناعة الفلسفة وجدل الكلام؛ لذا كانت لغته تفكّراً وتأمّلاً ينحو نحو الوجدان عند الجماهير.

والمسألــة التي أتناولها في هذه المداخلة تدور حــول «تساؤلات في المبنى العقيديّ والمنهج عند الدكتور حسن حنفي».

ويبــدو للقارىء في نصوص الدكتــور حنفي، أنّ تلك النصوص والصيغ التي يصوغ فيها منظومتــه الفكريّة أنّ تلك المنظومة، تبتني في وجهها العقيديّ على مجموعة مبانٍ وأصول، يمكــن اعتبارهــا أسساً محوريــة، تبتني عليهــا، كثير مــن النظريات، والأفــكار في النسق العقائديّ والكلاميّ والفلسفيّ عنده.

وهــذه المبادئ، يقترن بها مسألــة كيفيّة إنتاج الأمور العقائديّــة؟ فيكون البحث عندها في منطقــة «المنهج» التي أخذت حيّــزاً، وحضوراً واسعاً في صياغة الرؤى عند حسن حنفي؛ إذاً، فالمداخلــة تدورمسائلهــا في ثلاثة أطراف، هي: المبنــى – المنهج – والرؤية، في السير من العقيدة إلى الثورة.

محوريــّة الإنســان:

لعلّه من السهل على الباحث في فكر حنفي أن يستنتج أنّ الإنسان أصيل في رؤيته؛ حيث دعــا للسير من «علم الله» إلى علم الإنسان؛ فجعلــه محوريّا في منظومته، ورأى أننا «... لا نعلم علماً آخر سوى العلم الإنسانيّ»[1]، وأن «تصور العلم الإنسانيّ محدوداً والعمل الإلهي غير محدود هو تصور يقوم على احتقار الذات وتملّق الغير...»، و «لن يزداد الله فرحاً بأن نجعل علمه لا محدوداً».[2]

هذه النّصوص تؤكد أنّ تأصيل المباني التي أسّست لتنظيره منطلقة من محورية الوجود الإنســانيّ، الذي يريد أن يغيّر العالم، وينتقل من العقيدة إلى الثورة؛ وأنّ الإنسان هو الذي يمنــح الفعّالية للنصّ الدينيّ في تحريك الواقع؛ والنصّ الدينيّ يأتي كجواب لسؤال الواقع؛ من هنا، فإنّ الدورالإنسانيّ هو التمهيد للجواب الإلهيّ من خلال صنع السؤال.

ويقــول في نصّ آخــر: «آليّــات التعامل مع القــرآن الكريم تنحصــر في كلمتين: المنهج والرؤيــة؛ فالمنهج القــرآنيّ منهج مهــمّ، وأنا أسمّي ذلــك أولوية الواقع علــى الفكر ...»[3] ويــرى أنّ «القــرآن الكــريم لا يتكلم، والله لا يتكلــم إلا بناء على ما يــرى في العالم ...فكان القــرآن يستجيــب لسؤال الواقع». واستــدلّ على ذلك بالآيات التي تبدأ بــ «يسألونك» مثل: ﴿**ويسألونك عن الأهلّة**﴾، و﴿**يسألونك عن المحيض**﴾، و﴿**يسألونك عن الخمر**﴾. ثم

يقول: «الأسئلة لم تكن نظرية، بل كانت عمليّة ونستطيع أن نستنتج أن الواقع يسأل والوحي يجيب، فنحن نرى دائماً أولويّة الواقع على الوحي.»[٤]

والخلاصة أنّ الأصول التي انبنت عليها رؤى الدكتور حنفي منبثقة من مركزيّة الإنسان في نظرته لله والكون، لا محوريّة الله في حياة الإنسان؛ وهذا يثير الأسئلة التالية: من هو الله في رؤية د. حنفي؟ ما هو الوحي الإلهيّ عنده؟ ثمّ من هو الإنسان؟ وما هي طبيعة العلاقة بين الله والإنسان؟

لا شك في أنّ هذه المسائل تتطلّب بحثاً واسعاً لا تقوم هذه العجالة به، رغم التعرّض لبعضها في مطاويها.

وبناءً على هذه المحوريّة للإنسان كانت الأصول التي اعتمدها د. حنفي هي ما يأتي:

- العقل.
- العمل.
- التغيير والتطوير.
- الاجتماع، مقابل الميتافيزيقا.
- المعاصرة.

وأعتقد أنّ محوريّة الإنسان بهذه الاستقلاليّة، والنظرة التي أشار إليها بأنّ «الله لن يزداد فرحاً» قد تشير إلى نمط من العلاقة الشكليّة بين الخالق والإنسان. وكذلك تعبير «احتقار الذات» الصامتة التي لا حياة فيها.

في النّظرة إلى الله

نموذج لغة الصمت:

إذا استعرضنا نصوص الدكتورحنفي، نجد أنّه جعل الله موضوعاً لكثير من المحمولات، وعدّد أوصافاً لله - بحسب المقدمات الإيمانيّة - بأنّه «الوجود المطلق»؛ باعتباره «قدرة شاملة وإرادة مسيطرة، فهو الذي يبدىء ويعيد، وهو الذي يقرّر، وهو الذي يحيي ويميت» ثم يعبّر عن العالم الأصولي القديم بأنه يظلّ «يتغزّل في هذه القوة المسيطرة لدرجة الفناء

فيها، وكلما شعر بعجزه قوي مدحه...»[٥]

تعبير «يتغزّل في هذه القوّة» لعلّه يشي ببعض التهكّم، ثمّ يقرّر قاعدة كلية تقول: كلما شعر بالعجز قوي المدح. لكن كيف نعبّر عن الله؟

يخلص إلى اعتبار أنّ لغة الصمت قد تكون «أقدر لغة على التعبير عن «ذات» لله هروباً من قضيّة اللغة»؛ إذ إنّ «اللغة الإنسانية لا يمكن أن تعبّر إلا عن التصورات أو الإدراكات أو الموضوعات أو المعاني الإنسانية.» ثمّ يسأل: «كيف يمكن التعبير عن المطلق بلغة نسبية؟» ويضيف: «الحديث عن ذات الله خطأ في تصور وظيفة اللغة...»[٦]

من الواضح أنّ الدكتور حنفي يواجه إشكاليّة في التعبير عن الله، فأيّة لغة نستخدم؟ هل اللغة الإنسانيّة أم الرمزيّة أم النسبيّة...؟

والسؤال هنا في سياق بناء أيديولوجيّة عصرية وثورية..- كما يريدها الدكتور- لمَ لا تحضر «لغة الله» في التعبير عن الله؟ وهل يصحّ أن نقدم الله تعالى كما نرى نحن أو أن نقدّمه كما قدّم نفسه؟

نموذج في تفسير سبب الحمد

عوداً إلى القاعدة التي مرّت، يعتبر الدكتور حنفي أن «الحمد على ما هو موجود فيه رضا واستكانة، والثورة على المفقود فيه غضب مطالبة بحق.»[٧]

ويذهب إلى أنّ «الاتجاه نحو الحاجة أقوى من نزوعنا نحو الحمد»، و«أنه لن يتغيّر الواقع عن طريق الدعاء».[٨]

والسؤال هنا: هل الشعور بالعجز هو الذي يولّد المدح للذات الإلهيّة فتكون الأوصاف الجماليّة للذات هي مشاعر إنسانيّة بحيث تصبح بعداً من الأبعاد الإنسانيّة؟ أم أنّ الصفات الإلهيّة حقيقة يكتشفها الإنسان بعقله، ويميل إليها بفطرته، ثمّ بعد ذلك يحمد الله لأنّ الله أهل للحمد (وجدتك أهلا للعبادة)، وأنّ الإنسان يرتقي بالحمد، وليس الأمر نزوع عجز بنحو يجعل الإنسان خالقاً لأوصاف الله نتيجة ضعف؟ وفي النصوص القرآنية ما هو من قبيل: (الحمد لله الذي هدانا) وغيرها يثبت فعلا لله تعالى.

ومن ناحية أخرى، فإنّ حصر الدكتور حنفي العلم بـ «العلم الإنسانيّ» - كما في النص الأول - تندرج في مركزة الإنسان؛ وهذه الأمور تؤشّر إلى أنّ الموضوع في جوهره هو نحو من

أنحـاء فكرة التفويض التي نادى بها الاعتزال الكلاميّ والدكتور حنفي من مجدّدي الكلام الاعتزاليّ.

نعـم، الإنسان هـو موضوع التكليف، والإنسان هو المخاطـب والمعني بالعمل في الخطاب الإلهـيّ. ولـو تتبّعنا المباني الأساسيّـة لفلسفة الثورة عند الدكتور لوجدنـا أنّ الأصالة فيها للإنسـان، وهـذا يتناسب مـع محوريّته. وفي هـذا السياق تأتـي «أصالة العقـل»، وأصالة العمـل»، وغيرهـا؛ وفقا لنظريّة «السير من علـم الله إلى علم الإنسـان».. والسؤال: ما هو مقدار الحضور الإلهيّ في محركيّة الثورة في الوجدان الإنسانيّ عند د. حنفي؟

أصالـة العقـل:

هـذا الأصل يعدّ مـن الأصول الأساسيّـة في منظومة الدكتور؛ إذ يرى أنّـه «...لا يؤخذ شـيء علـى أنه حق إن لم يعرض على العقل والواقـع...»[٩] وأنه «لا يوجد صمّـام أمان إلا في وعـي الإنسان بذاته وليس في عقدة «القبة السماويـة».[١٠] وأنّ «معرفة الحق والباطل، والصـواب والخطـإ، لا تأتي من علٍ، بل من تأمّل في المعطيـات الفكرية والواقعية».[١١] وأن «العقـل بإمكانـه تنظير كلّ شيء، وإن شئنا تبرير كل شيء. هو آلة يمكن استخدامها في كل اتجاه، فيمكن إيجاد براهين على التوحيد كما يمكن إيجاد براهين أخرى على التثليث».

لقد جعل الدكتور العقل ميزاناً ومعياراً لقبول أيّ شيء، وذلك في مقابل القبة السماوية، وكذلـك تبرير أيّ شيء، ورفض أيّ شيء، لكن ما المقصود بالعقل؟، هل هو بمعنى الغريزة كمـا يذهـب إلى ذلك الحكمـاء، أو أنّه قوة من قـوى النفس كما عليه ابن سينـا[١٢]؛ أو أنّه فعل، فيصبح عندها من مقولة الفعل لا من مقولة الجوهر كما يذهب إلى ذلك د. طه عبد الرحمـن؟ هل هو جزء من النفـس أم أنه منفصل عنها؟ هل المقصود بالعقل الأصيل عند د. حنفـي العقـل العمليّ أم العقل النظريّ؟ هل هما قوّتان في النفس- كما يرى ابن سينا-، أم أنّهما قوة ذات جهتين- كما يذهب الحكيم السبزواريّ-؟، أم أنّهما عقل واحد مختلفان بحسب المدركات،- كما عليه المحقق الأصفهانيّ- فالتسمية عندها تتبع المدرَك؟

نعم عرّفه في بعض النصوص بقوله: فهو ذات عاقل قادر على التمييز بين الأشياء. لكن مـا معنى ذات عاقل؟ وهل المعنى هو التمييز؟ ويظهر أن د. حنفي تحدّث كثيراً عن وظائف العقل وآثاره.[١٣]

لكن وظيفة العقل لا تعني حقيقته، وهذا يتطلب عرضا مفصلا لا مجال لذكره هنا.

صنـــاعـــة المصطلح

إنّ مشكلـة عـدم التأصيـل للمصطلـح - أعتقـد - أنهـا تفتح البـاب واسعـاً للأسئلة والإشـكالات، لا سيّما وأنّنا في مقـام تثبيت القضيّة، فكيف نؤصّل القضية، ونجعلها محوراً قبل أن نؤصّل موضوعها ومحمولها؟

وهـذه المشكلة ترد بقوّة عندما يكون الباحث في مقام تأسيس نظرية؛ والدكتور في مقام العمل من أجل تطوير الاتجاه الاعتزاليّ خطوة نحو عقل الثورة، من أجل إقامة لاهوت شامل للثورة.

ومـن بـاب المثال: يستخـدم الدكتور حنفي مصطلـح «اللاهوت» فجـاءت تعبيراته من قبيل: «لاهوت سلبيّ»، «لاهوت إيجابيّ»، «لاهوت الأرض» ،«لاهوت الثورة»، «لاهوت التنمية»، «لاهوت التقدّم...»[١٤]

وهـذا الأمر يطـرح السؤال التالي: لنقل إنّ المنهج التوفيقـيّ الذي يتبنّاه الدكتور حنفي يبحـث عن مركّب توفيقيّ بين الحضارات والثقافات من حيث الأفكار والمعاني والنظريات، ولكـن هل يستدعي ذلك استعـارة المصطلحات أو عدم العمل علـى تأصيلها ؟ إذ يظهر أنّ المعيار في اختيار المصطلح غير مستقرّ في منظومة الكلام الجديد عند الدكتور حنفي؛ وإن كان قد قال بأنّه يستخدم المصطلح من الوافد، لكن هذا لا يلغي الإشكال، بل يطرحه بقوة؛ فهـل الميزان في اصطلاح المصطلح هو إسلاميّتـه أوتطابقيّته مع مصطلحات مستعارة، أم الحفر اللغويّ والصرفيّ...؟

أصالـة العمـل:

يـرى الدكتور أنّ «صحة أيّة نظريّة مرهونـة بفائدتها العملية»؛ ولذا ذهب إلى أنّ «قيمة الأفـكار هو آثارها في السلـوك»؛ وعلى ذلك فـ «لا توجد هناك حلول صائبة وأخرى خاطئة، بـل توجد حلـول فعّالة ومؤثـرة...»[١٥] ووفقا لهذا قـال: «الدليل الوحيد علـى الله عمليّ لا نظـريّ». من هنا عمل الدكتور على إعادة طـرح أيديولوجيا كلاميّة جديدة، واشترط فيها أن تكون عملية ومعاصرة.

تبرز أمامنا من جديد إشكالية التأصيل الاصطلاحيّ، فماذا يقصد الدكتور من أصالة العمل؟ هل يمكن أن يصدر عمل قبل النظر؟

ثـم إنّ قضية: صحة أيّة نظرية مرهونـة بفائدتها العملية، هي بحد ذاتها قضيّة نظريّة وليسـت عملية. وأعتقـد أنّ السؤال هنا معرفيّ إبستميّ بالدرجـة الأولى؛ فما هو الميزان في صـدق القضيّة؟ هل هو فائدتهـا العمليّة؟ أم مطابقتها للواقـع؟ أم التساوق بين موضوعها ومحمولها؟ أم الاعتقاد بمضمونها؟...

ولـو أطللنا على المقـولات الدينيّة القرآنيّة من قبيل: المستضعفـون سيرثون الأرض، إن زلزلة الساعة شيء عظيم، الصدق حسن وواجب، الجنة لمن أطاع الله، النار لمن أصر على المعصيـة... أو مقولات من مثل: النقيضان لا يجتمعان، العدل والظلم متنافران، إذا تحقق الحق بطل الباطل... فهل صدق هذه القضايا مرهون بفائدتها العملية؟ أو أنّ صدقها ذاتي غـير متوقـف على عملانيتها؟ ولنفترض أن الناس أعرضت عن العمـل بالقضايا القيميّة كالتي مرت وغيرها؛ فهل الإعراض هذا يبطل قيمة القيمة؟ وهل مرور الأزمان وعدم العمل بالعدل والحقّ يبطل عدالة العدل وحقانية الحقّ؟

أضـف إلى ذلك، إذا كانـت قيمة الفكرة أثرها على السلـوك ألا يمكن أن تتحقق فكرة مقدّسة ثم لا يعمل بها حاملها اتباعاً للهوى وإن كان يعلم بحقانيتها، فهنا السلوك لم يتأثر بالفكر، فهل يقال عندها: إن هذا الفكر لا قيمة له.

التطويـر والتغيـيـر

فإن القراءة الكلاميّة للدكتور بلحاظ حركة التاريخ التطوريّة للعلم نفسه وفرقه؛ فاعتبر أن هنـاك ظهوراً للموضوعات من خلال الفـرق، وظهوراً للفرق من خلال الموضوعات، وأن هنـاك تحولاً من مسائل العلم إلى موضوعاته، ومن موضوعاته إلى أصوله، ثم من الأصول إلى البناء، ومنه إلى عقائد الإيمان.

منهـج فهـــم النص:

أصالـــة المفسـر لا المـــؤلف

السـؤال المطروح في هذه النقطة قبل النقاش في فهم النص؛ ما هو تعريف الوحي عند الدكتـور حنفي؟ ثم هل يعطـي الوحي علما ألوهيـا؟ خصوصا وأن كلمـة (ألوهي) عندما يذكرها الدكتور يضعها بين هلالين. و هل يمكن فهم الوحي كما أراده الموحي؟ وما هي آلية ذلك؟

منشـأ هذه الأسئلـة وغيرها هو أنّه يذهـب إلى اعتبار أنّ الوحي بعـد نزوله صار علما إنسانياً إذ يقول: «إنّ الوحي ذاته بعد نزوله وفهمه يصبح علماً إنسانياً...»[١٦]

هنا يطرح السؤال: هل يرى الدكتور أنّ القرآن الكريم هو علم إنسانيّ؟

ومـن ناحيـة أخرى يعتقـد الدكتور حنفي في دراسـة منهج فهم النصـ بأصالة المفسّر والظـروف، لا النص؛ فيقـول: «النصوص مجرّد قوالب يمكن ملؤهـا حسب مقتضيات كل موقف، فالموقف هو الأصل المحدّد لا النص...»[١٧] وأنه «لا يوجد نص لا يمكن تأويله.»[١٨]

وفقـاً لهذا، فإنّ الدكتـور يصنع المعاني من الجمع بين الظـروف والمواقف وأفق المعنى لديـه كمفسّـر، فتصبح ذهنيـة المفسّر شرطاً وجوديـاً لحصول الفهم. وفي هـذا المنهج لا تكون الغاية من تفسير النص القبض على مراد المؤلف، فالمفسّر لا يعبأ بالمقاصد والغايات المرادة من النص.

ومـن جهة أخرى، فإنّ عملية فهم النص لن تتناهـى وستتعدّد بتعدّد الأفهام عند عدم الضابـط؛ إذ إن القراءات المختلفة للنص لا تعرف حدوداً. أضف إلى ذلك عدم وجود فهم ثابت، ونهائيّ للنص؛عندها لن يفهم أحد أحداً؛ فيمكن لكلٍّ أن يفهم ما يريده هو.

إذا كان كل نصـ يمكـن تأويله بنظـر الدكتور حنفي، فهل هذا يعنـي انتفاء المحكم في اللغة وأصول الفقه؟ ثم أين تصبح قيمة الظواهر والظهورات العرفية التي بني على ضوئها مبادئ الإفهام والتفهيم الاجتماعيين؟ ألا يلزم من تأويل كل نص التفلّت من كل فهم؟

المنهـج التوفيـقيّ:

وهـو المنهج الذي تبنّاه الدكتور حنفي لإنتاج عقيـدة توافقية، مستشهداً بالغزالي الذي استطـاع إعـادة عرضـ المنطق اليونـاني في الميزان والمعيـار، والدكتور يبحـث عن مناطق التقـارب حتـى في الاجتماع؛ فهو يجمع بين الدولـة الوطنيّة وحـركات الأسرة، وكذلك بين القـديم ةالجديد إذ يقول: «أنا أخذت علم الكلام القديم وأعيد قراءته من منظور التخلف والتحرر والاستعمار والوحدة والهويـة...»[١٩] ويبحث عند استعراضه المذاهب الغربيّة عن التقارب معهم. ويرى أنّه عند نقطة الصراع بين الكلام والوافد يظهر دور الفيلسوف الذي ينشـق من الكلام ويحاول الحرص علـى وحدة ثقافة الأمّة؛ فيعمل على الجمع بين الفلسفة والـكلام.[٢٠] ويرى أنّ «مسؤوليّة الفيلسوف هي أن ينظر إلى محتوى كلتا الثقافتين، ويسأل

نفســه بعض الأسئلة: هل إن الثقافتين متوافقتان؟ أومختلفتان ومتعارضتان؟...فالفلاسفة إذًا نتيجــة نظرتهــم التوحيدية أخذوا بهذه التجربة اليونانية علــى أساس أنّ اليونان تأخذ بالعقل، والعقل أساس النقل في الإسلام، فالشريعة الإسلاميّة هي شريعة عقليّة...»

ويــرى أنّ «مهمتنــا الآن أن نستمــر في إنشاء فلسفــة التعامل مع الغــرب ؛ فمثلا: يجب أن نستعمــل ألفــاظ الغرب في منظومتنــا الفكرية، وأنا أستخدم مثلا كثــيرا هذه الألفاظ، فأقــول: اللامتناهــي واللامحــدود، الحركــة، الزمــان، وأضعهــا لتعريف بعض مفاهيم الإسلام...».[٢١]

وقــد ظهرت مظاهر هذا المنهج في الكثير من الكتابات في ما يتعلّق بالمذاهب الإسلاميّة أو الغربيّة.

وهنــا سؤال: هل المنهــج التوفيقيّ «داخل ديني» أم أنّه «خــارج ديني»؟، ألا يمكن اعتبار أنــه نوع من الديالكتيك الإسلاميّ؟ ثم هل يمكن التوفيق في الأصول والمبادئ؟ ماذا لو أدّى المنهج التوفيقيّ إلى التناقض في النتائج بسبب التغاير في الموضوعات والمقدمات؟

هــذا المنهج جدير بالبحث والنظر ولا يتّسع المقام في هذه المداخلة الصغيرة والتي تعبر عــن فهــم محدود، ربما شبهاتــه أكثر من واضحاته؛ لذلــك نأمل أن يوفّــق الباحثون وأهل النظر لتجلية هذا البحث.

الهوامـــش:

١- من العقيدة إلى الثورة، ج ١، ص ٢٣٤.

٢- المصدر نفسه، ص ٢٣٤.

٣- مجلة المحجة، العدد٤، ص١٧٩.

٤- المصدر نفسه.

٥- من العقيدة إلى الثورة، مصدر سابق، ص٨.

٦- المصدر نفسه، ص٨١.

٧- المصدر نفسه، ص١٢.

٨- المصدر نفسه، ص١٣.

٩- المصدر نفسه، ص١١.

١٠- المصدر نفسه.

١١- المصدر نفسه، ص ١٠.

١٢- انظر: شرح الإشارات، ج٢، ص٣٥٢-٣٥٤.

١٣- من العقيدة إلى الثورة، ج٣، ص٣٩٨.

١٤- من العقيدة إلى الثورة، ج١، ص١٢٥.

١٥- من العقيدة إلى الثورة، ج١، ص ٢٠٠.

١٦- المصدر نفسه، ج١، ص٢٣٤.

١٧- المصدر نفسه، ص ٢٠٢.

١٨- المصدر نفسه، ص٢٠٢.

١٩- المحجة،العدد٤،ص١٧٥.

٢٠- المصدر نفسه، ص١٦٩.

٢١- المصدر نفسه، ص١٧٤.